



استخدام الفتن والحروب الطائفية سياسة إيرانية قديمة افتعلتها الحركة الشعوبية الفارسية في العهود السابقة جاعلة من المذهبية عنصر التزام حزبي لتحقيق غايتها. و عند قيام الدولة الصفوية (905 هـ 1148 هـ) التي بُنيت على أساس مزج القومية بالمذهبية، كشفت تلك الحركة الشعوبية عن نواياها الحقيقية بوضوح فكما هو معلوم أن الدولة الصفوية التي تبنت التشيع الإثني عشري مذهبياً رسمياً لها، قد قامت على إبادة أهل السنة الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم لبلاد فارس حيث لم يكن وجوداً حقيقياً للمذهب الشيعي الإثني عشري في تلك البلاد آنذاك و إذا كان من شيعة في بعض المناطق الشمالية والشرقية لإيران فهم من الشيعة الزيدية والشيعة الإسماعيلية من جماعة الحسن الصباح (الحساشون).

وتذكر الروايات الإيرانية أن إسماعيل الصفوي عندما استولى على مدينة تبريز واجه صعوبة بالحصول على مؤذن واحد يلقط كلمة "أشهد أن علياً ولِي الله" حيث لم يسبق لتلك المدينة التركية اللغة وسننية المذهب أن تعرفت على مثل هذه الجملة من قبل.

وعلى الرغم من عدم معرفة السبب الحقيقي الذي دفع بالصفويين لتغيير لقب جدهم صفي الدين الأردبيلي من شيخ إلى " سيد " وربط نسبهم بالإمام السابع للشيعة (موسى بن جعفر) وتبنيهم المذهب الإثني عشري ليصبح مذهبياً رسمياً لدولتهم، إلا أن بعض المؤرخين الإيرانيين لا يتزدرون في الربط بين رغبة الكنيسة الشرقية التي كانت تسعى جاهدة آنذاك لفتح جهة في

الشرق لإضعاف الإمبراطورية العثمانية وإشغالها عن التقدم نحو الغرب من جهة، وبين العلاقة العائلية التي كانت تربط تلك الكنيسة بالأسرة الصفوية من جهة أخرى، حيث كانت والدة الشاه إسماعيل الصفوی أرمنية تنحدر من إحدى أسر بلاط الملكي الروماني.

كما ربط بعض هؤلاء المؤرخين بين قيام الدولة الصفویة و ظهور الحركة اللوثرية البروتستانتية في أوروبا، ولهذا السبب يعللون اعتماد الصفویین على علماء شیعہ لبنان لكونهم كانوا على تماس و مقربة من المسيحيین والأفکار المسيحیة دون غيرهم من مشايخ الشیعہ الآخرين وعلى الأخص مشايخ الشیعہ في العراق الذين لم تكن لهم حظوة لدى الدولة الصفویة.

الصفویون وبعد أن فرضوا مذهبهم بقوة السيف في بلاد فارس، سعوا إلى توسيع دائرة سلطانهم و نشر مذهبهم إلى خارج الحدود و بدؤوا بغزو أفغانستان و بخارى و سمرقند مرتكبين مجازر دامية، ثم بعد ذلك توجهوا إلى الغرب و احتلوا بغداد و حفروا قبر الإمام أبي حنيفة ثم توجهوا جنوباً واحتلوا الأحواز وأطاحوا بدولة المنشعسين.

وبقيت حروبهم على أهل السنة مستمرة حتى غزا الأفغان بقيادة "محمود الأفغاني" مدينة أصفهان عاصمة الصفویین واحتلها و هدّ ملکهم.

و رغم اندحار الأسرة الصفویة وتولي الأسرة الإفشارية زمام الملك في بلاد فارس إلا أن الحرب على الفكر والمذهب السنی لم تتوقف من قبل تلك الدولة وكانت الحروب المتواصلة مع الدولة العثمانية تمثل أحد أوجه الحرب الطائفية.

ولو استثنينا فترة حكم نادر الشاه الإفشاري (1160 - 1148 هـ) التي شهدت ما يشبه الهدنة مع أهل السنة فإن الأنظمة التي أعقبت الدولة الأفشارية قد واصلت نهج الصفویین وإن كان ذلك بطريق وسائل مختلفة.

ولم يكن النظام البهلوی (1926 - 1979) العلماني مستثنی من الأنظمة الصفویة والإفشارية والقاجارية التي قادت الحروب الطائفية، فقد كان النظام البهلوی قد دعم وبشكل كبير حوزة قم و النجف أيام مرجعیات البروجردي ومحسن الحکیم و الخوئی الذين سعوا إلى التمدد عبر بناء المؤسسات في مصر و الهند ولبنان وغيرها من الدول الأخرى حيث كانت تعمل على نشر الفكر الطائفي الصفوی كما أن عمل بعض تلك المؤسسات يتذبذب وسيلة لجمع المعلومات الاستخباراتية لصالح نظام الشاه، كما هو الحال في الوقت الحالي حيث تقوم أغلب هذه المؤسسات بالتجسس لصالح النظام الإیرانی أو تنفيذ مخططاته في نشر الفتن وخلق النزاعات بين أبناء البلد الواحد.

وتؤكدأ لذلك فمن طریف ما ينقله أحد وكلاء مرجعیة حوزة النجف في مصر فترة السبعینیات وهو السيد "طالب الرفاعی" المقيم في أمريكا حالياً، (وهو الذي صلى على جنازة الشاه الإیرانی محمد رضا بهلوی الذي مات و دفن في القاهرة عام 1980)، إنه وحين كان في زيارة لآیة الله محسن الحکیم في النجف سأله صهر الحکیم و مدير مكتبه "إبراهیم البیزدی الطبطبائی" قائلاً له، يا سید طالب أین وصلت في نشر مذهبنا في مصر، هل جعلت المصریین يلغون عمر بن الخطاب؟.

ومع انتصار الثورة الإیرانیة وقيام نظام ما يسمی بالجمهوریة الإسلامیة، فقد أصبحت سياسة تصدير التشیع الصفوی جزءاً من استراتيجية نظام الملالي لخلق الفتنة الطائفية وشق صفوف المجتمعات العربية والإسلامیة متذذاً من شعار التقرب بین المذاهب وسیلة للبغضية على أهدافه الحقيقة التي تضرر العداء والکراهیة لأتباع المذاهب الإسلامیة.

وبهذا الخصوص يقول زعيم أهل السنة في إیران "و الذين ينتمون إلى أقوام وشعوب مختلفة" الشيخ عبد الحمید مرادزهی "إن أهل السنة يمثلون 25 في المئة من سكان إیران أي 18 مليون شخص وهؤلاء الملایین لا يوجد بينهم وزير أو محافظ واحد، كما لا يوجد سني واحد من بين أعضاء هیئة رئاسة البرلمان الإیرانی، و منذ 27 عاماً ونحن نطالب بالترخيص لبناء

مسجد لأهل السنة في العاصمة طهران و لكن الحكومة ترفض الموافقة على هذا الطلب ". علماً أن الدستور الإيراني الذي وضع على أساس طائفية حرم المواطن السنّي من تبوء منصب رئاسة الجمهورية وجعل هذا المنصب محصوراً بأتيا المذهب الشيعي فقط.

وعن الأزدواجية التي يظهرها النظام الإيراني في ادعائه بالعمل على التقرير بين المذاهب الإسلامية يقول الشيخ عبد الحميد، إن مسؤولي مجمع تقرير المذاهب يسافرون إلى أماكن عديدة في العالم من أجل التبليغ لمشروعهم ولكن مع الأسف أن هذا المجمع لا يعمل في الداخل كما يظهره في الخارج وهذا الأمر يثير لدينا التساؤل حيث نحن في الداخل لدينا مشاكل عديدة تواجه هذا المشروع فلماذا لا يسعون إلى حلها أولاً؟.

مؤكداً أن رفع معاناة أهل السنة في إيران أهم بكثير من رفع شعارات التقرير والوحدة التي ليس لها واقع على ظهر الأرض في الداخل الإيراني.

بعد فشل تحقيق أهدافهم في تصدير ثورتهم عن طريق القوى العسكرية التي أفشلتها تجربة حرب الثمانية سنوات مع العراق، لجأ قادة النظام الإيراني ومرجعيات حوزاتهم الدينية، إلى سياسة اعتماد التفرقة الطائفية في البلدان العربية اعتماداً على جعل الحزب المذهبي وسيلة ليسهل عليهم عملية اختراق تلك البلدان ونشر الفتن الطائفية.

و هذا ما تؤكد حالة الاقتتال الطائفي التي مر بها العراق وتمر بها اليمن اليوم حيث يدور الاقتتال بين الحكومة وجماعة التمرد الحوثي الذين يتلقون أوامرهم من مرجعيات حوزة قم الإيرانية.

كما أن هناك مجادلات واتهامات حادة تدور حالياً بين بعض المتشيعين ورجال دين ومثقفين في عدد من الساحات العربية حيث يعتبر الكثير من المراقبين أن ظاهرة المتشيعين الجدد إنما هي حركة سياسية تقف وراءها أيادٍ إيرانية.

بطبيعة الحال هذا ليس اعتراضاً على الآخرين باعتناق ما يرونه مقنعاً لهم من الناحية العقائدية ولكن الاعتراض هو دخول هؤلاء المتشيعين في لعبة النظام الإيراني الذي يسعى إلى تصدير أفكاره السياسية تحت عباءة نشر فكر التشيع فيما هو يقمع بقوة أهل السنة الإيرانيين ويهدم مساجدهم ويغلق مدارسهم ويعتقل ويعذب علماءهم، ويمارس نفس الأسلوب كذلك مع الشيعة العرب الأحوازيين حيث يحرمهم من أبسط حقوقهم القومية ويعتقل ويعذب أبناءهم بتهمة البعثية تارة والوهابية تارة أخرى لمجرد أنهم لا يقررون سياسته الشعوبية.

و هنا يظهر نفاق النظام الإيراني الداعي للتقرير بين المذاهب من جهة، و قمعه لأهل السنة الإيرانيين واستغلال بعض الشيعة والمتشيعين لأهداف سياسية تخدم مشروعه الطائفي الساعي لإثارة الفتنة وتمزيق البلدان العربية، من جهة أخرى.

إيلاف

المصادر: